وفي هذا اللفظ تكوّن المقطع المكرر من صوتي الزاي واللام، وكلاهما صوت مجهور، والجهر في حقيقته زفير يصاحب الحرف عند نطقه، ((وسبب صدور زفير الجهر إن الهواء المندفع من الرئة.... قد تتضايق أمامه فتحة المزمار.... فلا ينفذ إلا باحتكاك شديد بالوترين الصوتيين المكونين لجانبيها بسبب صغر الصدر من ورائه، وضيق المنفذ بين الوترين أمامه، فلذلك الاحتكاك تتذبذب الأوتار الصوتية بشدة فيصدر ذلك الزفير الذي هو الجهر))(1). والحقيقة إن هذه العملية في نطق الأصوات المجهورة قد أخذت مداها الأوسع في هذا اللفظ، وذلك لأنها تتكرر مع كل صوت من أصواته بصورة متعاقبة، ما جعله يلقي بظلاله على المشهد المفزع لحدوث الزلزال وعليه فقد جاء اللفظ في غاية الإبداع في تصوير حركتهم الشديدة وعرضها بكل ما يصاحبها من ضجيج وانفعالات في ذلك الموقف.

$^{(2)}$ -3

قال تعالى: [قَالَ مَا خَطبُكُنَّ إِذْ رَوَدتُنَّ يُوسف عَن نَفْسِهِ قُلْنَ حَش للَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سوء قَالَتِ امْرَأَت الْعَزِيزِ الآنَ حَصحَص الْحَقُّ أَنَا رَوَدتُهُ عَن نَفْسِهِ وانَّهُ لَمِنَ الصادِقِينَ] (يوسف / الآية 51).

قال الآلوسي: ((حصحص: أي: ظهر وتبين بعد خفاء)) $^{(3)}$.

والحاء من الأصوات الرخوة المهموسة عند النطق به تنقبض فتحة المزمار من دون أن تحدث اهتزازا في الوترين الصوتيين⁽⁴⁾، وهذا ما يجعله مناسبا جدا للتعبير عن خفاء الحق قبل ظهوره الذي أشار اليه تفسير اللفظ.

ثم جاء الصاد بعد صائت قصير وهو من الأصوات ذات الجرس الصارخ إلى جانب السين والزاي ـ كما عبر عنها الدكتور محمد حسين الصغير ـ إذ ((يلحظ لدى استعراضها أنها تؤدي مهمة الإعلان الصريح عن المراد في تأكيد الحقيقة، وهي بذلك تعبر عن الشدة حينا وعن العناية بالأمر حينا آخر، مما يشكل نغما صارما في الصوت وأزيزا مشددا لدى السمع))(5).

وهنا يمكن القول أيضا إن هذا الازيز المشدد الذي يحدثه صوت الصاد في السمع جاء ليعبر عن وضوح الامر وانكشافه وبذلك يتجسد لنا جانب جمالي في هذا اللفظ ولاسيما في مجيئه للتعبير عن هذا المعنى، فلو تأملنا خفاء الامر ثم انكشافه بهذه القوة وأمام الملأ لما وجدنا عجبا في ((اختيار هذا اللفظ في أزيزه ووضوح أمره مع القهر، فلا تردّ دلائله ولا تخبو براهينه))(6). فقد أسهم بناؤه الصوتى في اداء الوظيفة البلاغية له وتقريب المعنى من المتلقى إذ منحه قدرة على الايحاء والتصوير معاً.

+ - 2 کیکیوا (7):

قال تعالى: فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ والغَاوُنَ) (الشعراء / الآية 94)، وكبكبوا هنا بمعنى قذفوا والضمير فيه يعود على المشركين، كما إن الضمير في قوله (فيها) يعود على الجحيم، أما الغاوون فهم الشياطين(8).

والذي يلفت هنا ان مادة (كبّ) وردت في القران الكريم في غير موضع من دون تكرار للمقطع الصوتي، منها ما جاء في قوله تعالى: (فكبت وجوههم في النار) (النمل / الآية 90)،وكذلك في قوله تعالى: (أفمن يمشي مكبّاً على وجهه اهدى) (الملك / الآية 22). والحقيقة إن المعنى الذي وردت فيه في الموضعين لا يتطلب إثارة المبالغة في وصف أحوالهم فلذلك خلت من التكرير الذي يفيد المبالغة.

أما في سورة الشعراء فقد جاء التكرير في اللفظ محاكيا لدلالة الشدة والفزع فيه ((جُعِلَ التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها))(10)، إذ إن واقع حال هؤلاء المشركين وهم في

⁽¹⁾ المختصر في أصوات اللغة العربية 56.

⁽²⁾ ينظر: غريب ابن قتيبة 218، وغريب ابن الملقن 181، ومعجم الحنفي 289، ومعجم عبد الباقي 37

⁽³⁾ روح المعانى 12 / 611.

⁽⁴⁾ ينظر: علم الأصوات وأصوات اللغة العربية، 62 - 63.

⁽⁵⁾ الصوت اللغوي في القرآن 179.

⁽⁶⁾ الصوت اللغوي في القرآن 181

⁽⁷⁾ ينظر: غريب زيد 180، وغريب ابن قتيبة 318، والتبيان 250، ومعجم الحنفي 177

⁽⁸⁾ ينظر: تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين 3 / 279.

⁽⁹⁾ ينظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، شرف الدين الطيبي، 474.

⁽¹⁰⁾ الكشاف 3 / 368، وينظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي 132/6.

تدهور دائم بين القيام والسقوط على وجوههم أو مناخرهم مرة بعد أخرى لا يمكن ان يُستشعَر عند المتلقي أو يُصوَّر في ذهنه بهذا التمكن بغير هذا اللفظ⁽¹⁾.

ولعل الذي أضفى على هذا اللفظ نغماً صارما وشدة في الدلالة وقدرة على التصوير صوتي (الكاف والباء) فكلاهما صوت انفجاري شديد، فضلا على أنهما تكررا مرتين في اللفظ نفسه ما أعطاه شحنة انفعالية مضاعفة، ومن ثم جعلا اللفظ يكون منسجما مع المعنى الذي جاء به، وإن هذا الانسجام بين اللفظ والمعنى أعطى للنص الكريم كاملا بعدا جماليا محببا لدى المتلقي، وقدرة هائلة على التأثير فيه.

5 - صرصر (2)

قال تعالى: [فَأَرْسِلْنَا عَلَيهِمْ رِيحاً صرْصراً في أَيَامٍ نحِساتٍ لِّنُدِيقَهُمْ عَذَابِ الخَزْي في الحْيَاةِ الدَّنْيَا ولَعَذَابِ الآخرة أَخْزَى وهُمْ لا يُنصرُونَ] (فصلت/ الآية 16)، وقال في موضع آخر: [إِنَّا أَرْسِلْنَا عَلَيهِمْ رِيحاً صرْصراً في يَوْمِ نحْس مُستَمِرً] (القمر/ الآية 19)، وقال أيضا: [وأَمًا عَادٌ فَأُهْلِكوا بربح صرْصر عَاتِيَة] (الحاقة/ الآية 6).

وقد وردت مادة (صرّ) من دون تضعيف في قوله تعالى: [مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ في هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيح فِيهَا صرُّ أَصابَت حَرْث قَوْم ظلَمُوا أَنفُسهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ ومَا ظلَمَهُمُ اللَّهُ ولَكِنْ أَنفُسهُمْ يَظلِمُونَ] (آل عمران/ الآية 117).

وكما مرّ معنا إن تضعيف الألفاظ يأتي من أجل إظهار معاني الشدة والمبالغة فيها، ولذلك قيل في تفسير الصرصر: - إنها ربح شديد السموم، والصرّ بفتح الصاد البرد⁽³⁾.

ولما أراد المبالغة في شدة الصفة كرر المقطع، قال ابن جني: ((فلمًا كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلا على قوّة المعنى المحدَّث به وهو تكرير الفعل كما جعلوا تقطيعه في نحو صرصر وحقحق دليلا على تقطيعه))(4)، وقال الطوسي: ((أرسل عليهم ريحا صرصرا أي شديدا صوته واشتقاقه من الصرير ولذلك ضوعف اللفظ إشعارا بمضاعفة المعنى))(5). وقد كان لصعوبة الصفير لحرف الصاد والتكرار في حرف الراء اثر في قوة دلالة اللفظ على المعنى، فالتتابع الصوتي في اللفظة اكسبها اثارة في استيحاء الموقف الذي عبرت عنه فقد يحدث ان تفقد الكلمات ذات المعنى المباشر فاعليتها في نقل الموقف كما اراد لها المبدع فيضطر الى الاستعانة بالفاظ اخرى ذات بعد موسيقي لها القدرة على نقل ذلك الموقف بصورة اكثر تأثيرا من شأنها ان تشد المتلقي للنص (6)

وصرصر من الالفاظ التي تصاقب معانيها، إذ تكون فيها أصوات الحروف على سمت الأحداث التي تعبر عنه، فهي تحمل شحنات دلالية موحية إلى حد كبير، ففيها من قوة الجرس وروعة الأداء ما يحمل النفوس إلى مستوى الاحساس بالمعنى الذي تحمله، فأنت ((تلمس فيها اصطكاك الأسنان وترديد اللسان، فالصاد في وضعها الصارخ والراء المضعفة، والتكرار للمادة في (صرصر) قد أضفى صيغة الشدة وجسّد صورة الرهبة فلا الدفء بمستنزل ولا الوقاية متيسرة)) (7).

وعليه فإن الانسجام التام بين المعنى وصفات الأصوات المكررة في هذا اللفظ قد انعكس على المتلقي وزاد من شدة التأثير فيه بما يمتلكه من قوة تعبيرية جعلته يكون جميلا في مواضعه التي ورد فيها.

6- عسعس ⁽⁸⁾:

قال تعالى: (والليل إذا عسعس) (التكوير / 17).

ذهب أهل اللغة إلى أن (عسعس) من ألفاظ الأضداد (⁽⁹⁾، فيقال: عسعس الليل وسعسع، إذا أدبر، ويقال أيضا: عسعس إذا أقبل ظلامه. وعليه فقد انقسم المفسرون في نفسير اللفظ في الآية الكريمة. قال الفراء: ((اجمع المفسرون على أن معنى (عسعس)

⁽¹⁾ ينظر: مباحث في علوم القرآن 336.

⁽²⁾ ينظر: غريب ابن قتيبة 388، وغريب ابن الملقن 350، ومعجم الحنفي 324، ومعجم عبد الباقي 112

^{(ُ&}lt;sup>3</sup>) ينظر: روح المعانى 498/24.

^{(&}lt;sup>4</sup>) الخصائص 2/ 155.

^(ُ 5) التبيان في تفسير القرآن، للطوسي 111/9، وينظر: مجمع البيان، للطبرسي380/2.

⁽⁶⁴⁾ ينظر: الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة - د. مصطفي سويف 132

⁽⁷⁾ الصوت اللغوي في القران 187

⁽⁸⁾ ينظر: غريب زيد 300، وغريب ابن قتيبه 517، والتبيان 337

⁽⁹⁾ ينظر: الأضداد في كلام العرب، أبو الطيب اللغوي 308

أدبر، وكان بعض أصحابنا يزعم أن (عسعس) دنا من أوله))⁽¹⁾، وذهب غير واحد من المفسرين إلى تحديد الصفة لا إلى تحديد الزمن، فقال: ((عسعس الليل: إذا كان غير مستحكم الإظلام))⁽²⁾، وهو على هذا التوجيه يحتمل إقبال الظلام وإدباره.

والذي يترجح عندي ما ذهب إليه أكثر المفسرين وهو معنى الإدبار، وذلك إننا لو وقفنا وقفة بسيطة على الأقسام القرآنية بألفاظ الزمن نجد أنها جاءت في أعمها مراعية للتعاقب الزمني بينها، ففي سورة الشمس مثلاً قال تعالى: [والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها] (الآيات من 1-4) وقال في سورة الضحى: [والضحى والليل إذا سجى] (الايتان 1-2)، وقال في سورة الفجر: [والفجر وليالٍ عشرٍ] (الايتان 1-2). وبناء على هذا يمكن القول إن ما ذهب إليه احد الباحثين المحدثين في ترجيحه معنى الإقبال، إذ يرى أنه أنسب لتناسقه مع الآية الثانية (1)، رأي فيه نظر، إذ لو كان الأمر كذلك لتقدمت الآية الثانية على الأولى، والله تعالى أعلم.

والحقيقة إن الدلالة الصوتية في هذا اللفظ قد اختلفت تماما عن الدلالات الصوتية الأخرى في الالفاظ الرباعية المضعفة، إذ انها جميعا حملت معاني العنف والقوة والتهديد في بنائها الصوتي ما يعطي للقارئ تصورا إن هذه الألفاظ جاءت مضعفة لإظهار هذه المعاني، إلا ان هذا التصور سرعان ما يتبدد مع (عسعس) بما يشيعه من أجواء راخية حالمة وهو يجسد (صورة الليل وهو يعسّ بالظلام بحركة وئيدة بطيئة، وصورة حية شاخصة على طريقة القرآن في التشخيص، لتحقق منتهى التأثير بهذه الصورة الشاخصة)⁽⁴⁾، كما اننا لو نظرنا إلى الأصوات المفردة التي تكون منها اللفظ واللذين هما صوتا العين والسين نجد أن تراوح صوت العين بين الجهر والرخاوة يعطي إيحاء بدخول الصبح بما يحمله من أصوات هادئة، فالجهر يناسب الصبح. كما أن الهمس والخفاء في السين يناسب الليل وبذلك تكون هذه اللفظة بجرسها الصوتي قد رسمت مشهد الهزيع الأخير من الليل في وقت قد تداخل فيه ضوء الفجر الذي أقبل بقوة مع ظلام الليل الذي أدبر بهدوء.

7- رفرف (5)

قال تعالى: (مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَف خُضر وعَبْقَري حِسان) (الرحمن / 76).

قال الزمخشري: ((الرفرف: ضرب من البسط. وقيل البسط وقيل الوسائد، وقيل كل ثوب عريض رفرف))(6)، ومنهم من ذهب إلى أنها رياض الجنة (7). والذي يتسابق إلى السمع حين تردد هذا اللفظ ذلك الصدى الحالم الذي يتمتع به فأنت حين تردده تستشعر بالرخاء والهدوء، إذ تتجلى لك صورة الحياة هناك بأرق مظاهرها فهي ناطقة بمضمونها ((تؤدي معناها من خلال أصواتها))(8). فالراء صوت تكراري مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة، اما الفاء فهو من الأصوات المهموسة المرققة. ولعل الهمس والترقيق والرخاوة التي تتمتع بها هذه الأصوات جاءت متساوقة مع دلالة اللفظ وبالتالي جعلته أكثر سموا وجمالا في سياقه هذا الذي لا يمكن للفظ آخر أن يحلً محله، لما فيه من قيمة جمالية دلالية (9)، كما ان تكرار المقطع الصوتي فيه يبعث في النفس إيحاءاً بتكرار المشهد إن تكرار المقطع يوحي بتكرار الحدث واستمراره (10).

رابعا: جرس صفات الأصوات:

1- يصطرخون ⁽¹¹⁾

قال تعالى: [وهُمْ يَصطرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلُ صلِحاً غَيرَ الَّذِي كَنَّا نَعْمَلُ أَو لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظالِمِينَ مِن نَصِير] (فاطر / 37).

⁽¹⁾ معانى القران 3 / 242.

⁽²⁾ المحرر الوجيز 444/5.

⁽³⁾ ينظر: الإعجاز الفني في القران الكريم، عمر السلامي 261.

⁽⁴⁾ دلالات الظاهرة الصوتية في القران الكريم 248.

⁽⁵⁾ ينظر: غريب ابن قتيبه 443،و وغريب ابن الملقن 437، والتبيان في غريب القرآن، لابن الهائم 309

⁽⁶⁾ الكشاف 4 / 326.

⁽⁷⁾ ينظر: غريب ابن قتيبة 443.

⁽⁸⁾ الصوت اللغوي في القران 176.

⁽⁹⁾ ينظر: في جمالية الكلمة د. حسين جمعة 54.

⁽¹⁰⁾ ينظر: في النص القرآني وأساليب تعبيره، د. زهير غازي زاهد 98.

⁽¹¹⁾ ينظر:غريب زيد 206، وغريب ابن قتيبه 361، والغريبين 1070

إن (يصطرخون) هنا جاءت بمعنى يتصارخون بشدة ((والاصطراخ الصياح والنداء بالاستغاثة: افتعال من الصراخ، قلبت التاء طاءٌ لأجل الصاد الساكنة قبلها، وإنما فعل ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين يوافق الصاد في الاستعلاء والاطباق ويوافق التاء في المخرج))(1)، ولعل التساؤل الذي يتبادر إلى الذهن- هنا- لماذا كان التعبير بهذا اللفظ دون يصرخون؟

وإذا عدنا إلى حقيقة المشهد الذي هم فيه علمنا أنه من أشد المشاهد فزعا فالضمير في (فيها) يعود على نار جهنم التي مر ذكرها في الآية السابقة، فهم بين لهيبها وحسيسها وكلاهما أفزع من الآخر. فالمشهد إذن من مشاهد عذاب يوم القيامة تعالت فيه الأصوات تستغيث من النار، وعليه فقد جاء صوت الطاء لـ((يضيف معنى الشدة في استغاثة الكافرين ليدل على صراخ قوي نابع من نفوس محطمة بائسة))(2)، فضلا على ذلك فإن صوت الطاء دائما ما يكون للتعبير عن علو الأصوات، فالأطفال مثلا إذا أرادوا التعبير عن صوت العيار الناري رددوا صوت الطاء مع المد (طاطا) لما يمتلكه من قوة انفجارية عالية، كما تظافرت مع هذا الصوت أصوات (الصاد والخاء والراء) فهي أصوات مفخمة وعليه فقد كان ((توالي الصاد والطاء وتقاطر الخاء والراء والترنم بالواو والنون يمثل لنا رنة هذا الاصطراخ المدوي))(3)، وعليه فإن هذا اللفظ بصيغته وجرسه وشدة النطق به ترجم بدقة متناهية الحالة النفسية لهم وهم في حالة من الضجيج والانفعال والصراخ، فأنت ((تسمع كلمة (يصطرخون) في الآية فيخيل جرسها الغليظ غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالاصوات الخشنة))(4). وإن هذا كله حقق تناسقا جماليا رائعا جعل من المتلقي يستشعر المعنى عن طريق تناسب الأصوات وانسجامها مع الدلالة.

2 – ضیر*ی*⁽⁵⁾

قال تعالى: [ألَّكُمُ الذِّكرُ ولَهُ الأُنثى * تِلك إذاً قِسمَةٌ ضِيزَى] (النجم / 21-22).

لقد ذهب المفسرون إلى ان (ضيزى) بمعنى جائرة أو ناقصة أو ظالمة، ويقال: (ضاز في الحكم إذا جار، وضيزى وزنه (فُعلى)، فكُسِرت الصاد للياء وليس في النعوت (فِعلى))(6)، ومن هذا نفهم أن هذه المفردة لم تكن غريبة في لفظها فقط، وإنما في صيغتها أيضاً وعليه فقد كانت هذه الغرابة ((أشدَّ الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها))(7). وما أراها على هيأتها هذه إلا مصداقا لما قاله الجاحظ ((إنما الألفاظ على أقدار المعاني))(8).

وإذا نظرنا إلى هذه اللفظة بلحاظ البناء الصوتي لها ومدى ملاءمته لمعناها نجد أنها تكوّنت من مقطعين صوتيين، الأول مدِّ ثقيل، والآخر مد خفيف، ومن المعلوم لدينا أن الكسر أثقل أصوات المد القصيرة، وقد جاء بعد صامت (الضاد)، أما الفتح فهو أخفها وقد جاء بعد صامت (الزاي)، وهذا التشكيل الصوتي للفظة يجعل المتأمل بها كأنّه أمام كفتي ميزان، وهاتان الكفتان غير متوازنتين، فكانت اللفظة بذلك من مصاديق القسمة الجائرة، إذ إنها تمكنت في ((موقعها من ترسيخ المعنى في ذهن المتلقي من وصف حالة المتهكم في إنكاره))(9).

هذا من جهة المعنى، أما من جهة الموسيقى فقد جاءت على الحرف المسجوع الذي انتهت به فواصل السورة كلها، ما أعطاها قوة في موضعها، إذ لا يسد مسدها لفظ آخر (10).

وقد أشار إلى ذلك من السابقين ابن الأثير في معرض مناقشته لها، فهو يقول: ((إذا جئنا بلفظة في معنى هذه لفظة قلنا: (قسمة جائرة أو ظالمة)، ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى، إلا أن إذا نظمنا الكلام فقلنا: (لكم الذكر وله الأنثى * تلك إذن قسمة جائرة) لم يكن النظم كالنظم الأول، وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج إلى تمام وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة لنظم الكلام))(11).

⁽¹⁾ مجمع البيان 8 / 641.

⁽²⁾ دلالات الظاهرة الصوتية في القران الكريم 235.

⁽³⁾ الصوت اللغوي في القران 166.

⁽⁴⁾ التصوير الفني في القران الكريم 79.

⁽⁵⁾ ينظر:غريب ابن قتيبه 428، وابن الملقن 420، ومعجم الحنفي 329، ومعجم عبد الباقي 119

⁽⁶⁾ التبيان 304.

^(ُ) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - للرافعي 230، وينظر: لغة القرآن- احمد مختار عمر 144، والصورة الأدبية في القرآن الكريم - صلاح الدين عبد التواب 83.

⁽⁸⁾ الحيوان 8/6.

⁽e) الصورة الأدبية في القران الكريم 84.

⁽¹⁰⁾ ينظر: جرس الألفاظ 203، ومن بلاغة القرآن 73، وفي جمالية الكلمة 46.

^{(&}lt;sup>11</sup>) المثل السائر 162/1.

ومن هذا يتبين لنا أن هذه اللفظة متى ما جاءت مفردة خارج النظم كانت غريبة وقبيحة في الوقت نفسه، ولكن فصاحتها وسر جمالها ينكشف واضحاً وجلياً في التركيب ولاسيما في السياق القرآني الذي وردت فيه، إذ جاءت ملبيةً للمعنى والإيقاع معاً، إذ إنها خلقت حالة من التناغم بينهما ألقى بظلاله على المتلقي في خلق حالة من الدهشة عنده وهو يتلقى النص قارئاً أو سامعاً.

 $^{(1)}$ أفّ -3

قال تعالى: [فَلا تَقُل لهُمَا أُف ولا تَنهَرْهُمَا وقُل لَّهُمَا قَوْلاً كريماً] (الإسراء / 23).

قيل أن ((الأفّ وسخ الأذن، والتفّ وسخ الأظفار، ثم يقال لما يستثقل ويضجر منه: أفّ وتفّ)) $^{(2)}$. وقال ابن عطية: ((إنها اسم فعل، كأن الذي يريد أن يقول أضجر واتقذر وأكره، أو نحو هذا يعبّر إيجازاً بهذه اللفظة فتعطي المعنى المذكور)) $^{(3)}$ ، ولعل مناسبة هذه اللفظة للمعنى الذي جاءت به يمكن ان تستشعر في اكثر من جانب واحد فيها. فقصر اللفظة أعطاها بعداً بيانيا فهي تستعمل كناية عن أقل الأذى ((ولو علم الله تعالى أوجز منها في ترك العقوق لأتى بها)) $^{(4)}$ ، ومن جهة أخرى فإن ما يحصل من طرد النفس من الصدر عند النطق بصوت الفاء جعل اللفظة تعبر عن الرفض وإرادة التخلص ((ولو أن الرافض بحث عن تعبير مناسب للرفض ما وجد أفضل من لفظ (أف) بسبب ما فيها من دلالة طبيعية تدعم دلالتها العرفية فهي تدل بجرسها على ما تدل عليه بوضعها)) $^{(5)}$.

هذا وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه اللفظة من الألفاظ التي توسع مجال الدلالة فيه ((وأصلها إنه إذا سقط تراب أو رماد فنفخ الإنسان ليزيله فالصوت الحاصل هو (أفّ) ثم توسعوا في الكلمة حتى أصبحت تقال لكل مكروه)) $^{(6)}$.

وبعبارة أخرى: إن جرس اللفظة جعلها تمتلك قيمة تعبيرية كبيرة على الرغم من قصرها، كما أنها كانت واحدة من السمات الجمالية في النص القرآني، إذ جاءت منسجمة مع الجو الصاخب في سياق الآية الكريمة الذي اصطبغ بألوان الرفض والتضجر.

(7) أغطش (A

قال تعالى: [وأَغْطش لَيْلَهَا وأَخْرَجَ ضحَاهَا] (النازعات / 29).

ذهب بعض المفسرين إلى أن (أغطش) من مرادفات (أظلم) أي إنهما بمعنى واحد، والمعنى: أظلم ليله، أي جعله مظلماً⁽⁸⁾. والذي يتراءى لمن يتأمل في اللفظين إنه لا وجه للترادف فيهما، وإنما جاء النص بهذا اللفظ للإشارة إلى معانٍ لا تؤديها كلمة (أظلم)، إذ إن (أغطش) ((تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة، فالكلمة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعمّ الركود وبدت في أنحائه مظاهر الوحشة، ولا يفيد هذا المعنى كلمة (أظلم)، إذ تعبر عن السواد الحالك ليس غير))⁽⁹⁾.

ولعل الذي جعل هذا اللفظ مكتنزا بهذه المعاني كلها، الترتيب الصوتي لها ابتداء من البناء العام للفظ وانتهاء بالوحدات الصوتية الصغرى فيه، فاللفظ من الألفاظ الغريبة التي تشعر بالوحشة والتي تنبو منها الأسماع، فلذلك قلّ استعماله في لغة العرب، وقد جاء هنا مقصوداً ليختزل التعبير عن مشهد مظلم خيّم عليه الصمت وعمّ فيه الركود وبدت عليه مظاهر الوحشة، فهو على غرابته وكراهته جاء في موضعه على أحسن ما يمكن أن تأتي عليه الألفاظ، إذ ((إن أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه))(10)، وربما يكون المعنى أوضح في تحليل التركيب الصوتي للفظ. فاللفظ تشكل من مقطعين / أ - غ / ط - ش، والمقطع الثاني أظهر وأبين من الأول عن النطق باللفظ مُقطعاً، فهو يتكون من صامت الطاء زائدا مد قصير زائدا صامت الشين، والذي أعطاه قوة في الظهور صوت الطاء تحديداً – فهو كما مرّ – من أصوات الإطباق الشديدة، مما أعطى إيحاءاً بإطباق الليل وشدة ظلامه. أما صوت الشين فهو صوت رخو مهموس، وصفه الدارسون بالتفشي، لأن الهواء يتفشى عندما يرتفع طرف اللسان إلى مؤخر اللثة عند النطق به، وهذه الصفات تقرّب إلى الذهن حالتي الصمت والركود التي تفشت في أنحاء الظلمة.

⁽¹⁾ ينظر:غريب زيد 135، والغريبين 82، والتبيان 212، ونزهة القلوب 29

^{(&}lt;sup>2</sup>) نزهة القلوب 29.

⁽³⁾ المحرر الوجيز 3 / 448.

⁽⁴⁾ الحجة في القراءات السبع - ابن خالويه 125.

^{(&}lt;sup>5</sup>) البيان في روائع القرآن 355.

⁽⁶⁾ ينظر: صفوة التفاسير 56/1، وينظر دلالات الظاهرة الصوتية 246

⁽⁷⁾ ينظر:غريب ابن قتيبه 513،وغريب ابن الملقن 526، ومعجم عبد الباقي 148

⁽⁸⁾ ينظر: غريب ابن قتيبة 513، والكشاف 4 / 541.

⁽⁹⁾ مباحث في إعجاز القران، د. مصطفى مسلم 147.

⁽¹⁰⁾ البيان والتبيين، للجاحظ 1 / 83.

ومن لطيف ما يمكن ذكره هنا إن صوت الشين يستعمل في اللغة الدارجة وفي أكثر اللهجات العربية المتداولة اليوم للتعبير عن الصمت في صيغة دارجة تقترب في بنائها ومعناها من صيغة فعل الامر (ولعله اسم صوت) (اش) بمعنى اصمت، وهذا يعضد ما بدا لى في دلالة صوت الشين على الصمت والركود.

وعليه فإن لطافة هذا اللفظ تكمن في جرس أصواته ومدى مناسبتها للمعنى فهي تجعل المتلقي قريبا إلى استشعار المعنى من خلال إيقاعها المتماسك وجرسها المعبّر.

5 - جُدد (1)

قال تعالى: [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَت مخْتَلِفاً أَلْوَنهَا ومِنَ الْجِبَالِ جُدَدُ بِيضٌ وحُمْرٌ مخْتَلِفٌ أَلْوَنهَا وغَرَابِيب سودً] (فاطر / 27).

ذكر المفسرون أن الجدد بمعنى القطع الصخرية أو الترابية، وقد خُلِقت بألوان مختلفة (2).

و (جدد) هنا من الألفاظ التي سُخِرَ جرسُها إيحاءاً بالمعنى الدقيق دون غيره من الألفاظ التي أشار إليها المفسرون، فهو يمتلك طاقة تعبيرية تتجاوز حدود المعنى المعجمي له ((فالشدة واقعة في كل حرف من حروفه مما يوحي بالقوة التي تتناسب مع تركيب الجبال)) (3)، كما يرى احمد مختار عمر أنه ((كان يمكن لهذا المعنى أنْ يوصل إليه بواسطة استعمال لفظ (صخور) ولكن حروف هذه الكلمة هي: صاد رخوة ثم خاء رخوة أيضاً ثم راء تكرارية وفي الرخاوة رخاوة وفي التكرار تخلخل))(4). فالتشكيل الصوتي لهذا اللفظ جمع بين الشدة والانفجار، فالجيم صوت انفجاري يتراوح بين الشدة والرخاوة، والدال صوت انفجاري أيضا خالص في الشدة (3).

ولعل هاتين الصفتين في أصوات هذا اللفظ جعلاه منسجماً مع ذكر لفظ الجبال، ليشكل معه إيقاعا متناسقا استنزفت فيه قدرات صفات أصوات الحروف في خلق نغم حادٍ يتساوق مع المعنى الذي جاء به النص.

5- طفقا ⁽⁶⁾:

قال تعالى: [فَدَلَّاهُمَا بِغُرُور فَلَمَّا ذَاقَا الشجَرَةَ بَدَت لهمَا سوْءَتهُمَا وَ طَفِقًا يخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِن وَرَقِ الجُنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبِهُمَا أَ لَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشجَرَةِ وَ أَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشيطنَ لَكُمَا عَدُقُ مُبينً] (الاعراف / 22).

الآية الكريمة في معرض الحديث عن آدم وزوجه في قصتهما مع الشيطان الذي أغواهما فذاقا من ثمر الشجرة التي نهاهما الله عنها فنزلت بهما عقوبة الله تعالى بأن ((تهافت عنهما اللباس، فظهرت لهما عوراتهما، وكان لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر))(7)، فجاء التعبير بقوله (طفقا يخصفان) رد فعل منهما لستر عوراتهما بورق الجنة فجعلاه ورقة فوق ورقة (8).

ولو حاولنا تصور هذا المشهد في الذهن لاستقراء الانفعالات النفسية التي انتابتهما لكان أول ما يطالعنا من تلك الانفعالات هي حالة الفزع الشديد حينما تهافت عنهما اللباس في اللحظة الأولى، ومن بعد ذلك استشعار الحياء الشديد عندهما، فما نقله المفسرون يشير إلى ذلك بوضوح، قال ابن عطية: ((فلما واقع المعصية وبدت له حاله فرّ على وجهه، فأخذت شجرة بشعر رأسه، يقال إنها الزيتونة، فقال لها: أرسليني فقالت: ما أنا بمرسلتك، فناداه ربه، أمنّي تقرُّ يا آدم ؟ قال لا يا رب، ولكني استحييك))(9)، ولعل هذين الانفعالين يفسران لنا سبب انتقاء هذين اللفظين للتعبير عن هذا الموقف، لما فيهما من دلالة صوتية تعطي إيحاءً بالمعنى، فاللفظ الأول تكوّن من صوتين شديدين انفجاريين هما (الطاء والقاف) بينهما صوت رخو مهموس مرقق هو (الفاء)، فأما الصوتان الانفجاريان فجاءا محاكاةً لحالة الفزع التي نتجت من تهافت اللباس فجأة مرةً، ومن الشعور بالمعصية مرة أخرى.

وهذه الحال أكثر ما يناسبها الأصوات الشديدة الانفجارية ولاسيما صوت الطاء الذي من صفاته الأخرى الإطباق، وهذه تُعطي حالة من الترقب والخوف عندهما من الله سبحانه بأنْ يطبق عليهما عذابه.

أما صوت الفاء برخاوته وهمسه وترقيقه فجاء ليترجم حالة الحياء من ربهما والتذلل بين يديه، وهذا الحياء قد خالطه حياء آخر هو حياء بعضهما من البعض.

⁽¹⁾ ينظر:غريب ابن قتيبه 361، وغيب ابن الملقن 320، والتبيان 270، ومعجم الحنفي 284

⁽²⁾ ينظر: تفسير ابن كثير 11 / 319، والبحر المحيط 7 / 296.

⁽أَدُ) البيان في روائع القرآن 353.

⁽⁴⁾ البيان في روائع القرآن 353.

⁽⁵⁾ ينظر: علم الأصوات وأصوات العربية د. روعة محمد 61، 64. (6) ينظر:غريب ابن قتيبه 166، وغريب ابن الملقن 139،ومعجم عبد الباقي 46

⁽⁷⁾ الكشاف 2 / 149.

⁽⁸⁾ ينظر: الكشاف 2 / 149.

^{(&}lt;sup>9</sup>) المحرر الوجيز 386/2.

ومن ثم فإن هذا اللفظ يشعر بقوة وسرعة الشروع بالفعل ما يمكن لأي: فعل أمر أن يشعر به، فلو جاء التعبير بالفعل (جعلا يخصفان) لتبادر إلى الذهن أنهما كانا على مهل، وهذا لا يتلاءم مع شدة الحياء والخوف الذي استوجب السرعة في ستر عوراتهما.

وبناءٌ على هذا فإنه يمكن القول إن هذا اللفظ بجرسه الصارم جاء معانقا لسياق الجملة القرآنية التي ورد فيها، إذ أعطاه عمقاً دلالياً وجمالياً في الوقت نفسه، من خلال التعاطي المتبادل بين أصواته وبين دلالته.

6- انبجست (1):

قال تعالى: (وَقَطَعْنَهُمُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ استَسَقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضرِب بِعَصاك الحَجَرَ فَانبَجَسَت مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُوا مِن طَيِّبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَ مَا ظُلُونَا عَلَيْهِمُ الْعَنَمَ وَ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ والسَلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَ مَا ظَلُمُونَا وَ لَكِن كَانُوا أَنفُسِهُمْ يَظلِمُونَ) (الأعراف / 160).

قال الراغب: ((يقال بجس الماء وانبجس: انفجر، ولكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيقٍ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء))(2). ولعل هذا التوجيه للمعنى كان له الأثر في توجيه بعض الدارسين وهم يحاولون الوقوف على حقيقة استعمال الفعل (انبجس) في هذه الآية المباركة، في حين استعمل الفعل (انفجر) في آية أخرى من سورة البقرة تناولت قصة الاستسقاء نفسها. قال تعالى: (وإذِ استسقى مُوسى لقَوْمِهِ قَقُلْنَا اضرب بِعَصاك الْحَجَرَ فَانفَجَرَت مِنْهُ اثْنَتَا عَشرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كلُ أُنَاس مُشرَبَهُمْ كلُوا وَاشرَبُوا مِن رِّرْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوُا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (البقرة / 60). فقد ذهبوا إلى إن الانفجار بالماء أغزر من الانبجاس(3)، فلذلك جاء التعبير في سورة البقرة بالفعل (انفجر)، لأن موسى (عليه السلام) هو الذي استسقى فناسب إجابته بالانفجار، اما في سورة الاعراف فإن قومه هم الذين استسقوا، فناسب إجابتهم بالانبجاس، كما ان الضرب بالعصا في سورة البقرة جاء قولا مباشرا من الله تعالى لموسى، أما في سورة الاعراف فقد جاء إيحاء، والقول الصريح أتم وأكمل من الإيحاء. كما ان النص في سورة البقرة جمع بين الككل والشرب، أما في الأعراف فقد ذكر الشرب فقط (4).

فكل هذه الأشياء وغيرها – مما لا يتسع المقام لذكرها – دعت إلى اختلاف التعبير بين النصين الكريمين. إلا ان هذا كله لا يعني أن لفظ الفعل (انبجس) خاليا من القوة والغزارة، فاللفظة لمجرد سماعها تطبع في الذهن صورة لتدفق الماء بقوة وغزارة والذي أسهم في إظهار ملامح هذه القوة في هذه المفردة جرس أصواتها التي كانت مناسبة للمعنى إلى حد بعيد، ويتجلى ذلك في تحليل البنية الصوتية لها.

فالهمزة صوت انسدادي، إذ تُسَدُّ عند النطق به فتحة المزمار بحيث لا يُسمَح للهواء المزفور بالمرور من الحنجرة (5). كما ان النون اللاحقة لها هي الاخرى من الأصوات الانسدادية، فعند النطق بها يلتصق طرف اللسان بأصول الأسنان العليا واللثة فيمنع الهواء من الخروج (6)، وإن هذا الانسداد الذي تكرر مرتين متواليتين يعطيه قوة فيجعل المتلقي يستشعر شدة انحباس الماء في جوف الحجر، فكأنما قد ضاق به.

ثم يأتي بعد هذين الصوتين صوتان انفجاريان متواليان أيضا، وهما الباء والجيم ليعبرا عن شدة الانفجار بعد ضرب الحجر بالعصا فيأتي تدفق الماء ضمن ممرات ضيّقة وهذا الضيق – بطبيعة الحال – يعطيه شدة في الاندفاع تعادل شدة الانحباس.

أما صوت (السين) فقد جاء موازيا في موقعه من هذه اللفظة لصوت (الراء) في الفعل (انفجر).

وبحسب ظني أن الفرق في الدلالة بين الفعلين يمكن في التباين بين صفات هذين الصوتين، فالسين صوت رخو مهموس مرقق، أما الراء فهو صوت تكراري مجهور جاء مفخما في لفظ الفعل المذكور في سورة (البقرة)، ما جعله يكون أكثر ملاءمة لدلالة الفعل على الغزارة في التدفق، كما إن الرخاوة والهمس في صوت السين ناسبا دلالة ضعف التدفق في لفظ الفعل المذكور في سورة (الأعراف).

وفيما تقدم من دراسة تحليلية في بعض ألفاظ غريب القرآن بلحاظ ما توحيه أصواتها من معان، يمكن القول: إن من أبرز ملامح جمالية تلك الألفاظ هو مناسبة أصواتها لمعانيها إذ لا يمكن أن تجد هذه المناسبة العجيبة في نص لغوي آخر غير القرآن

⁽¹⁾ ينظر: غريب زيد 101، وغريب ابن قتيبه 173، والتبيان 171، ومعجم عبد الباقي 11

⁽²⁾ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني 58.

⁽د) ينظر: مجمع البيان 4/47، ومعترك الأقران 87/1، وبلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي 122.

⁽⁴⁾ ينظر: بلاغة الكلمة 125.

⁽⁵⁾ ينظر: علم الأصوات العام، بسام بركه 117 .

⁽⁶⁾ ينظر: علم الأصوات العام 119.